زعبـــلاوي

قصة بقلم نجيب محفوظ

* * *

أثارت قصة « زعبلاوي » لنجيب محفوظ من القلق في الحقل الفني ما لم تثره أية قصة اخرى من اقاصيصه القصار ، ولعل مرجع ذلك ان الرمز فيها شفاف يكاد ينطق من تحت الاطار الواقعي ، ولهذا النوع من القصص فضيلة العمق الى جانب فضيلة الصدق على المستوى الواقعي، واليه اتجه نجيب محفوظ في رواية « اولاد حارتنا » وفي قصة «اللص والكلاب» وفي أحدث اقاصيصه القصار . ولا شك في ان هذا الاتجاه هو الخطوة الاولى الضرورية نحو تحرير قصصنا من السذاجة الفكرية والبدائية الفنية معا ، ولكن له معايبه ايضا ، فهو قد يتحكم في الفنان من الناحية الفكرية وقد يجور على نصيب العاطفة في عمله الفني. وهذا ما حدث في اغلب كتابات نجيب محفوظ بعد الثلاثية اذ هبطت درجة حرارة العاطفة فيها بصورة ملحوظة ، وحلت محلها الاهداف الفكرية المجردة ، واستحالت الشخوص بين يديه رموزا خالصة ولكنها ظاهرة لا تطرد في انتاجه لحسن الحظ ، فهو في « اللص والكلاب » يحقق اهدافه الاخلاقية والفكرية من خلال بناء فنيمحكم غايةالاحكام، والحرارة العاطفية في هذه القصة تبلغ حدا من التوهج والالق والاشعاع لا نجد له نظيرا عند أي كاتب عربي اخر ، وانما اعني بقولي هذا روايته « اولاد حارتنا » وقصة « السمان والخريف » واقاصيصه « جوار الله » و « موعد » و « الجبار » حيث نرى مهارته التكنيكية تحرز تقدما مطردا ولكن على حساب العنصر العاطفي ، واخفاق هذه الاعمال في اثارة حالة شعورية كاملة يمثل اخطر المشاكل التي تواجه الفنان نجيب محفوظ في هذه المرحلة من تطوره الفني ، ومن هنا فاني أعد توفيقه في المزج بين عنصري الفكر والعاطفة في اقصوصته « زعبلاوي » انتصارا فنيا جديدا يثبت ان لهذا اللون من القصة القدرة على اثبات وجودة اذا ما اخلص الفنان له اخلاصا كافيا .

زعبلاوي في هذه القصة هو الله ، وهي حقيقة يدركها كل من قرأ القصة ولا يشك في ان كاتبنا عناها فلا داعي للسكوت عنها او اللف والدوران من حولها من بعيد ، او قل ان زعبلاوي هنا هو جبلاوي في « اولاد حارتنا » كما لاحظ أوائل من كتبوا عن القصتين (١) . فنجيب محفوظ في هذه الاقصوصة يتابع الخط الفكري الذي بدأه في « اولاد حارتنا » وان كان ينتهي في هذه المرة الى نتيجة فكرية تختلف كثيرا عما انتهى اليه فيروايته ، ولا ريب في انه ما كان غيره ليستطيع ان يعالج هذه القضية الفكرية الخطيرة على هذا المستوى الواقعي المحكم، فالله عند نجيب محفوظ موضوع تفكير عميق يجد القارىء صدى له في تأملات كمال في الثلاثية ، وفي احاديث الشيخ علي الجندي في اللص والكلاب ، ولكن هذه القضية عند نجيب محفوظ لا تدور في الفلك الفلسفي وحده ، وانما تتصل اوثق الاتصال بقضايا المصير الانساني ، ولذلك ينجح في ترجمة قضيته الفكرية ترجمة فنية مقنعة ، وهنا تكمن مشكلة كل من يحاول تفهم وجهة نظر كاتبنا في قضية الالوهية او يحاول تفسير نزعة القدرية عنده . من الحق انه من ابناء عصر العلم ، وانه ممن يرفضون الغيبيات رفضا قائما على اسباب عقلية ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة انه الحادي ، فهو في الحقيقة لا يزال يوازن بين كفتي القضية وهو لا يفتأ يعكس على ابطاله مظاهر هذا القلق الفني الخصب ، لان قضية الالوهية عنده قضية متحركة فوارة لا تنقطع صلتها بواقع الحياة المتطور . ولسوف يتولانا العجب اذا رأينا انه ينتهي في هذه الاقصوصة « ومن قبلها في اللص والكلاب » الى اتخاذ موقف صوفي فريد ، لعله لا يختلف كثيرا عما انتهى اليه الشاعر الانجليزي ت. س. اليوت في رباعياته الاربع ، وهي قضية خطيرة لا تحتمل الرجم بالظنون ولن يفصل فيها غير كتابات نجيب محفوظ القادمة .

الله في الاديان يحمل اكثر من صورة ، مما يثبت صدق قول الاستاذ ارنولد توينبي ان الاديان متناقضة تناقضا داخليا (٢). الله عند اليهودي رمز القوة والجبروت ، وعند المسيحي رمز الرحمة ، وعند المسلم رمز العدالة ، ويكاد نجيب محفوظ على لسان كمال في « قصر الشوق » انيرفض هذه المواقف الثلاثة وكل ما جرى مجراها ، وذلك فيالمونولوج الداخلي الرائع الذي يلقيه كمال وفيه يقول انه يزمع انتحال صفات الله وغربلتها من كل الفرائز البشرية كالسيطرة والجبروت والبطش ، ويظل نجيب محفوظ مع ذلك اقرب الى النظرة المسيحية التي تلائم تصوفه فيما يبدو ، فهو حين يصور الانبياء الثلاثة في « اولاد حارتنا » يبدي تعاطفا واضحا مع شخصية المسيح ومأساته الاليمة ، وهو هنا في « زعبلاوي » يكاد يومىء الى المسيح اكثر من ايماءة واضحة : « شيال الهموم والمتاعب ـ كنا نراه معجزة ـ هو حي لم يمت ولكن لا مسكن له ـ بفضله صنعت اجمل لوحاتي ـ في وجهه جمال لا يمكن ان ينسى ـ هذا العذاب من ضمن العلاج ـ بعد ان كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل ـ وحينا يلاعب اولادي كأنه احدهم ـ ثم عطف عليك فراح يبلل رأسك بالماء ـ العجيب انه لا تغريه المغريات ولكنه سيشفيك اذا قابلته بمجرد ان يشعر بأنك تحبه » .

والقصة تروى على ضمير المتكلم ، خلافا لموقف نجيب محفوظ المعروفي اغلبكتاباتهفالمتكلم هنا هو الانسان في كلزمان ومكان، ومحاولة البحث عن زعبلاوي قديمة قدم الخليقة ، وهي تبدو مقنعة في السياق القصصي لان بطل القصة يمرض مرضا لا يسميه نجيب محفوظ ولا يقدر غير زعبلاوي على شفائه ، وبذلك استطاع كاتبنا الى جانب بناء موقفه

---

(١) المغزى القصصي عند نجيب محفوظ ـ بقلم عزت محمدابراهيم « مجلة الادب يوليو سنة ١٩٦١ » .

(٢) عبادة النفس ـ بقلم د. مجدي وهبه «مجلة الادب ديسمبر سنة ١٩٥٨ » .

الدرامي ان يطبق تطبيقا فنيا ما يذهب اليه علماء الاجتماع والنفس من ان البحث عن الاله او النبي او المرشد لا يبلغ ذروته عند الجماعات والافراد الا في اوقات الشدائد وعند الضائقات. وهذه الحاجة النفسية هي ما يترجمه نجيب محفوظ بقوله :

الدنيا مالها يا زعبلاوي شقلبوا حالها وخلوها ماوي

والرغبة في البحث عن الله تلازم بطل قصتنا منذ طفولته ، وهي تمثل طفولة الانسانية كلها ، فالبطل يسأل اباه عن زعبلاوي ثم يقول ان اباه « رمقني بنظرة مترددة كأنما شك في استعدادي لفهم الجواب » وحين يكبر الطفل ويصيبه « الداء الذي لا دواء له عند احد » (١) يبدأ سعيه الخاص نحو الله محاولا الوصول اليه عن طريق خمسة دروب هي : الدين والعلم والحضارة والفن والتصوف .

الدين في القصة يمثله الشيخ قمر « وهو شيخ من رجال الدين المشتغلين بالمحاماة الشرعية » ولكن الدين في عالمنا قد ضاع مفعوله وفقد بساطته الاولى وفطرته ودخلت عليه عوامل دخيلة فبطل قصتنا يستدل على عنوان الشيخ قمر « بدفتر التليفون » والشيخ قمر يسكن « في عمارة الغرفة التجارية » ومن زبائنه « سيدة حسناء اسكرتني برائحة زكية كالسحر المخدر » وحجرته فيها « مقعد جلدي فاخر » و « غزارة السجادة ونفاستها » ورجل الدين نفسه « يرتدي البدلة العصرية ويدخن السيجار » وهو لا يبدي كبير تعاطف مع بطل قصتنا ولا مع ذكرى والده الذي كان له صديقا .

والعلم في القصة يمثله بائع الكتب الذي صرفته الحياة الواقعية عن التأمل الميتافيزيقي فهو حزين على غياب زعبلاوي حزنا صادقا ولكنه ليس بالحزن الذي يشل طاقته « وهز كتفيه في أسى وسرعان ما تركني لزبون قادم » ثم يلتقي بطل القصة بأصحاب الدكاكين « فاتضح لي ان عددا وافرا منهم لم يسمع عنه » وهؤلاء هم الذين يصفهم اليوت بأنهم « يعيشون في المجهل المظلم من الجهل وعدم المبالاة » (٢) كما ان من اصحاب الدكاكين من « سخر منه بلا حيطة ونعتوه بالدجل ونصحوني ان اعرض نفسي على طبيب » وهؤلاء هم الذين « يعيشون في صحراء الالحاد ذات النور الساطع » (٣) وهكذا يفشل البطل في العثور على الله عن طريق العلم .

والحضارة الزاحفة يمثلها في القصة شيخ الحارة ، وحتى هذا لا يبدو منزها عن الغرض « فقلت أفض مغاليقه بالقواعد المتبعة » وهو يتبع طريقة علمية في البحث عن زعبلاوي « لكن لم لا تستعين بالعقل ؟ » ويرسم خريطة كاملة للحارة « وهي الدنيا هنا » قائلا ان الرسم خير مرشد .

والفن يمثله في القصة اثنان « حسنين الخطاط » و « الشيخ جاد الملحن المعروف » وهما اللذان يرسم لهما نجيب محفوظ صورتين فاتنتين حقا ، ولا ريب في ان احدهما كان يكفي للدلالة على ما يرمز اليه كاتبنا ، ولكن اغلب الظن ان نجيب محفوظ لم يجد مانعا من تكرار الفكرة على صورتين كيما يقدم لوحة واقعية كاملة ، وهذان الاثنان يتوقان الى زعبلاوي توقا مخلصا ، ولكنهما عاجزان عن الوصول اليه .

وفي نهاية الامر يمضي بطل القصة الى الحاج ونسي الدمنهوري في حانة النجمة « وهو سكير خطير » وفي نشوة الخمر يفقد بطلنا وعيه فلا يعثر على الفردوس المفقود الا في المنام .

« حلمت بأنني في حديقة لا حدود لها تنتشر في جنباتها الاشجار بوفرة سخية فلا ترى السماء الا كالكواكب خلل أغصانها المتعانقة ويكتنفها جو كالغروب او كالغيم . وكنت مستلقيا فوق هضبة من الياسمين كالرذاذ ورشاش نافورة صاف ينهل على رأسي دون انقطاع . وكنت في غاية من الارتياح والطرب والهناء . وجوقة من التغريد والهديل والزقزقة تعزف في اذني وثمة توافق عجيب بيني وبين نفسي وبيننا وبين الدنيا فكل شيء حيث ينبغي ان يكون بلا تنافر او اساءة او شذوذ وليس في الدنيا كلها داع واحد للكلام او الحركة ونشوة طرب يضج بها الكون».

ولكن البطل يصحو على يقظة الواقع ، ولشد ما يكون ذهوله حين يعلم ان زعبلاوي جاء الى جواره اثناء نومه وبلل رأسه بالماء كي يفيق « والعماد بالماء في المسيحية رمز الميلاد الجديد » وهكذا يختفي زعبلاوي كما جاء ويعود بطل القصة الى الدوران في هذه الحلقة المفرغة من جديد.

ترى ما الذي يقصده نجيب محفوظ بهذه الخاتمة ؟ اغلب الظن انه يريد ان يقول : انما يكون الوصول الى الله عن طريق الوجدان لا العقل وفي لحظة الذهول التام التي يخلع الانسان عنه فيها لباسه الارضي، فلا الدين ولا العلم ولا الحضارة بقادرة على ان تصل اسباب الانسان بأسباب السماء ، ولكنما هي سكرة الطرب الالهي يعب الانسان فيها من الخمر الالهية منتشيا بها فهي وحدها التي تبلغ به قمة التطهر والشفافية والتجرد والصفاء .

ومن الواضح بعد هذا البيان ان موقف نجيب محفوظ في هذه الاقصوصة صوفي مغرق في الصوفية ، فهو يستعيد فكرات العشق الالهي والوجد واتحاد الخالق والمخلوق ، وبذلك يتخذ موقفا مخالفا تمام المخالفة لما انتهى اليه في رواية « اولاد حارتنا » حيث نراه يحمل على الغيبيات ويؤكد ايمانه بالعلم والانسانية ، وبديهي ان العملين لا يلغيان بعضهما ، فهما يعبران عن قلق كاتبنا وتردده بين الايمان والشك، وهذا القلق الفني هو عصارة قصة زعبلاوي لان نجيب محفوظ وان كان يؤثر هذا الدرب الصوفي على سواه من سبل المعرفة الا انه لا يتجمد عنده ، فهو يخبرنا بأنه اصبح موقنا من وجود زعبلاوي وانه ينتوي على ذلك الشروع في البحث عنه من جديد .

جامعة القاهرة ـ كلية الاداب ماهر شفيق فريد

(١) وبديهي ان هذه العبارة ينبغي ان تفسر على المستوى الرمزي.

(٢) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ـ تأليف ج.س. اليوت ـ ترجمة د. شكري عياد ـ ص ٨٤ .

(٣) المرجع السابق.

في الاسواق :

قضايا الشعر المعاصر

بقلم

نازك الملائكة

اوفى دراسة
وأعمقها في مشكلات الشعر
العربي الحديث

منشورات دار « الآداب » الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

موسوعة تـــاريخ المغرب الكبير

تأليف محمد علي دبوز

* * *

كان استقلال الجزائر ايذانا ببدء مرحلة فكرية جديدة في المغرب العربي تتصل باللغة العربية والتاريخ ومختلف شؤون الثقافة والادب والفكر . وكانت كتابة تاريخ المغرب العربي الكبير املا كبيرا يملأ نفوس المثقفين وينتظرون اليه بعد ان حاول الاستعمار خلال اكثر من مائةوثلاثين عاما تحريف هذا التاريخ واستغلال نصوصه واحداثه للقضاء علىالوحدة المغربية وخلق قوميات ضيقة ، او اثارة نعرات تمزق الصف ، وتحـاول ان تجعل من كل الاقطار الاربعة (ليبية وتونس والجزائر والمغرب) وحدة قائمة لها تاريخها وطابع ثقافتها ، في حين ان الحقيقة تثبت وحـــدة هذه المنطقة وتلاقيها تلاقيا كاملا امام ملامح واحدة ، لا تختلف كثيـــرا، وكذلك كانت محاولات الاستعمار في محاولة تمزيق الروابط بـــين المشرق العربي والمغرب العربي للحيلولة دون التقاء الاجزاء العـــربية كلها من المحيط الى الخليج في وحدة كبرى .

لذلك فقد تطلع الباحثون نحو المغرب العربي يتساءلون : متىيظهر ذلك المؤرخ الباحث الذي يعيد كتابة تاريخ المغرب العربي الكبير محققـا منصفا مصححا كل هذه الاخطاء ، حتى ظهر هذه الايام الكتاب الاول من موسوعة تاريخ المغرب الكبير للاستاذ محمد علي دبوز استاذ التاريـــخ بمعهد الحياة بالقراره في جنوب الجزائر وهو في اكثر من ٣٥٠ صفحـة من القطع الكبير معلنا عن ذلك الجهد المبذول منذ اكثر من خمسة عشـر عاما لاداء هذا العمل في عشرة مجلدات كبرى تتناول مراحل هـــذا التاريخ منذ فجره الى اليوم . « والكتاب مطبوع على ورق انيق فـي مطابع دار الحلبي بالقاهرة » .

وتعد موسوعة تاريخ المغرب الكبير من الاعمال الكبيرة الدلالة على قدرة الجزائريين في ميدان الفكر كقدرتهم في ميدان الحرب حين يقـــوم مؤرخ باحث كالاستاذ دبوز بكتابة اكثر من خمسة الاف صفحة مستعرضا فيها تاريخ هذه الاجيال ، مراجعا كل ما كتب في هذا الصدد ، كاشفا عن عشرات من الحقائق التي شوهها المؤرخون والكتاب ، يقول المؤلف: « هذا هو اول كتاب « جزائري » يطبع بعد استقلالها وارتفاع علم العروبـــة فيهـــا . عسى أخواننا في الشرق العربي يرون فيه محيـــا الجزائـر العربية وتاريخ المغرب صافيا نقيا من دعايات السياسة القديمة ومـن اكاذيب المستعمرين الذين لم يألوا جهدا في استغلال تلك الدعاية التي بثها الملوك المستبدون قديما ضد المغرب ليشوهوا صفحته . .تلكالاكاذيب التي استغلها المستعمرون ليسودوا صفحة مغربنا المشرقة فيبعدوهم عـن تاريخ اجدادهم فيسهل صبغهم بما يريدون وتجريدهم من شخصيتهـــم الاسلامية العربية كما يشاءون » .

واشار المؤلف الى الدور الذي لعبه التعليم المشرف عليه فيالمغرب كله والجزائر بالذات حيث يقول «كانوا ينشرون في مدارسهم الاستعمارية من الاكاذيب التي تبدي وجه اجدادنا الجميل على غير حقيقته وتبـــرز المغرب في غير حلله الزاهية . وينشرون ما وقع بين المغرب والمـــلوك المستبدين من الامويين والعباسيين ليبعدوا المغرب عن المشرق. ويجعـلون الناشئين يعتقدون ان المغرب في كنف دوله الاسلامية كانت أيامهمصبوغة بالدماء.. الى محاولة تحريف تاريخه المجيد في الازدراء باجدادنا وتشويه سمعة دولتنا ليخلقوا في نفوس ابنائنا عقائد سيئة عن اجدادهم تصرفهم عن الاعتناء بتاريخهم » .

واشار المؤلف الى الدور الذي قامت به المعاهد العربية الحرة في الحفاظ على التاريخ ومن اهمها معهد عبد الحميد بن باديس في شمـال الجزائر ومعهد الحياة في جنوبها حيث يشرف على الحركة الثقافيـــة العربية عالم من اعظم علماء المغرب هو السيد ابرهيم بيوض وهـو الذي اتاح للمؤلف الفرصة لالقاء عديد من المحاضرات في تصحيح هذا التاريخ.

ويقول المؤلف انه اسرع بالحلقات المظلومة في تاريخ المغرب العربي فاصدر هذا الجزء عن الفتح الاسلامي وستتلوها حلقة مجهولة هي تاريخ المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر الى ثورة الجزائر.

وصور المؤلف كيف كان هذا العمل صعبا كل الصعوبة وكان الطريق في هذه العهود مطموسا والسبل غير معبدة واغلب من كتبوا في تاريـــخ المغرب من المحدثين قد اغتروا بالمصادر « الملكية » فرددوا اغلاط المؤرخين القدماء فكان عليه ان يكتب فصولا جديدة معتمدا فيها على المصـــادر الصحيحة وان يسلك طريقا غير معبدة وان يأتي بشيء لم يسبق اليه.

ويقول المؤلف انه بدأ العمل في كتابة هذه الفصول منذ عام ١٩٥٠ بعد ان اتم مراجعاته الاولى . وكان على نية ان يطبعه عام ١٩٥٤ غير ان قيام الثورة الجزائرية قد حال دون ذلك فمضى يتوسع في المراجعويطلق دائرة البحث الى مداها ، وقد اتيح له ان يقوم بجولة واسعة فيالجزائر ليطالع عديدا من الابحاث المخطوطة الموجودة في الخزائن القديمة ــ وهي خزائن في جنوب الجزائر لم تمتد اليها يد ، كما زار مكاتب تونسالخضراء ودار الكتب العربية في القاهرة .

وكانت اخطر مرحلة في حياة موسوعته هي مرحلة الثورة حيـــث تعرضت بلدته « القرارة » للتفتيش عشرات المرات ، وكان قـــد وضع مسودة كتابه في صندوق خشبي لا مسامير فيه لكي لا تكشفه الالات التي تدل على الحديد وقد ردمه في الحديقة زمنا وكان كلمـا هوجمت البلدة يضرع الى الله ان يحفظه . ومناغلى ما كان يخشى عليهالخرائط التي امضى ثلاث سنوات في العمل بها من اجل التنقيب عن حـــدود الدول المغربية في القرن الثاني والثالث الهجري وقبل الاسلام.

وما ان اعلن استقلال الجزائر حتى كان المؤلف قد ركب الطائـــرة الى القاهرة حيث بدأ في طبع كتابه واستكمال مراجعاته في دار الكتب حيث اتخذ له كرسيا يحمل رقما لا يتغير هو «٦١».

والمؤلف عالم باحث درس في الجزائر وتونس والقاهرة وشغـــف بدراسة التاريخ منذ شبابه وكان اول من قدم القاهرة عام ١٩٤٤ مـن المغرب سائرا على قدميه قاطعا حدود تونس وليبيا حتى وصل مصر ابان الحرب العالمية ونزول الحلفاء في صقلية ولم يكن من اليسير ان يسمـح له بالسفر في هذه الفترةوقد قسمالمؤلف موسوعته الىعشرة اجزاء هي:

ــ من العصر الحجري الى الفتح الاسلامي .
ــ من الفتح الاسلامي الى نشأة الدول الاسلامية المغربية المستقلة « ٢٢ ــ ١٤٠ هـ » .
ــ الدول الاسلامية المستقلة حتى اوائل القرن الرابع .
ــ الدول العبيدية ودولة الصنهاجيين وبني حماد .
ــ دولة المرابطين والموحدين والحفصيين .
ــ دولة بني مرين ودولة بني زيان .
ــ الدولة التركية والاحتلال الفرنسي.
ــ النهضة الجزائرية الحديثة وثورة الجزائر .

ويحمل كتاب تاريخ المغرب العربي الكبير دعوة حارة الى الوحـدة « ان المغرب كان وطنا واحدا يسكنه شعب واحد . لم يعرف هـــذه التجزئة التي صار اليها المغرب الان ».

القاهرة — **انور الجندي**

فـــي البحـــرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

مـــن

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبـــي